سياقات الاستشهاد عند أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط

د. بوبكر إشو
باحث في العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية
أستاذ مادة التربية الإسلامية بالثانوي التأهيلي
المملكة المغربية

مقدمة

إن ما يلفت النظر عند أبي حيان في طرقه الاستدلالية والترجيحية ، هو استعمال السياق ، الذي يكثر الاهتمام به في ثنايا كتابه البحر المحيط و يتجلى ذلك في الحضور الفاعل لهذه الظاهرة في بعدها الأفقي المتمثل في كثافة الاستعمال سواء بالتنصيص والتصريح ، آو بالإشارة والتلميح ، وكذلك في بُعدها العمودي المتمثل في عمق التطبيق .

ونظرة بسيطة على تفسير البحر المحيط" تفي بالمقصود الذي نحن بصدده .

فقد جعل أبو حيان السياق أداة للفهم والاسترشاد كقوله : ... والذي يفهم من سياق الكلام أنهم امتثلوا الأمر وفعلوا مقتضاه .[1]

وقوله :... ولكن سياق ما بعده يرشد إلى ...[2]

كما ترددت في البحر المحيط عبارات تشير إلى أهمية السياق كقوله :...وقد دل سياق الكلام على ...[3]

... والذي يدل عليه سياق ما قبل هذا الأمر وما بعده ...[4]

... والذي يدل عليه السياق أن ...[5]

كما تكررت في البحر المحيط عبارات : - ظاهر السياق [6] وما يقتضيه السياق .[7]

كما استعمل ' السياق أداة لتعضيد أقوال العلماء أو استبعاد بعض منها كقوله : وقال صاحب " التحرير " : سألت أبا العباس القرطبي عن هذه الآية ...فقال : ذهب المفسرون فيها إلى أمر غير ملائم في سياق أول الآية .[8]

---

(1) البحر المحيط:407/1.

(2) نفسه : 646/1.

(3) نفسه : 433/5.

(4) نفسه :101/2.

(5) نفسه : 139/3 و 228/3.

(6) نفسه : 190/3 و 288/5.

(7) -نفسه :397/3 و126/4 و278/6.

(8) التحرير والتحبير لاقوا لائمة التفسير لجمال الدين أبي عبدالله محمد بن سليمان المقدسي المعروف بابن النقيب وهو من شيوخ أبي حيان (البحر المحيط : 89/1).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وقوله :... وهذا قول بعيد من سياق الكلام .[1] إلى غير ذلك من الأمثلة التي ستظهر بشكل جلي في الجانب التطبيقي من البحث.

المحور الأول : تعريف السياق لغة واصطلاحا .

السياق لغة :

السياق لغة مصدر ساق يسوق سوقا و سواقا ، وهو الأصل فقلبت واوه ياء مراعاة لكسر السين قلبها فصار سياقا.[2] ويدل السياق في اللغة على المعاني التالية :

1 التتابع والسرد :

وقد أورد ذلك الإمام الزمخشري (538ه) في أساس البلاغة بقوله : ومن المجاز ساق الله إليه خيرا ، وساق إليها المهر ، وساقت الريح السحاب .... والمختصر يسوق سياقا ... وتساوقت الإبل تتابعت ، وهو يسوق الحديث احن سياق ، واليك يساق الحديث ، وجئتك بالحديث على سوقه : على سرده.[3]

وقد أورد هذا المعنى ابن منظور (711ه) في لسانه قائلا : السرد في اللغة تقدمة شيء لشيء ، تأتي به متسقا بعضه في اثر بعض متتابعا ، سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه ، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له .[4]

وفي مختار الصحاح أورد الإمام الرازي نفس التعبير تقريبا مع التمثيل بقوله : وفلان يسرد الحديث إذا كان جيد السياق له ، وسرد الصوم تابعه ، وقولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد أي متتابعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب .[5]

وفي المعجم الوسيط نجد سياق الكلام : تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه .[6]

وفي البحر المحيط نجد الإمام أبا حيان الاندلسي (745ه) يورده بهذا المعنى في تفسير قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾»[7] قال الإمام: وخطب الزمخشري (538ه) فقال :

---

[1] البحر المحيط :52/6.

[2] النهاية في غريب الحديث :420/2.

[3] أساس البلاغة ، مادة (س و ق) ص 314.

[4] لسان العرب : باب الدال ، فصل السين ، مادة (س ر د) 210/3.

[5] مختار الصحاح ، باب السين مادة (س ر د) 124/1.

[6] المعجم الوسيط : 465/1.

[7] سورة مريم : الآيات 42-45.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه كان متورطا فيه ، من الخطأ العظيم ، والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقل وانسلخ فيه عن قضية التمييز ، كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه ارشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف ، والرفق واللين ، والأدب الجميل .(1)

وقد يدل السياق في اللغة على معنى قاد أو أعطى .

وقد أورد ذلك ابن منظور (711ه) ... ساق الإبل وغيرها يسوقها وسياقا وهو سائق وسواق ، وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت ... وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه ، وان كان دراهم أو دنانير لان أصل الصداق عند العرب الإبل ، وهي التي تساق ، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما ، ساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها ... وساقه إبلا أعطاه إياها يسوقها .(2)

وقد يأتي لفظ السياق بمعنى نزع .

كقول ابن منظور (711ه) وساق بنفسه سياقا : نزع بها عند الموت ، نقول رأيت فلانا يسوق سووقا أي ينزع نزعا عند الموت .(3)

السياق اصطلاحا .

لقد تعددت تعاريف الباحثين للسياق : فالدكتور إدريس حمادي يرى أن "السياق عنصرا يشمل كافة القرائن التي تساهم في عملية الفهم لغوية كانت أم غير لغوية" .(4)

ويوضح الدكتور تمام حسان ما يراد بالقرائن وعلاقتها بالسياق بقوله : إن السياق كالطريق لا بد له من معالم توضحه ، ولا شك ان مباني التقسيم وما تبدو فيه من صيغ صرفية وصور شكلية ، وكذلك مباني التصريف وما تبدو فيه من لواحق مختلفة ، تقدم قرائن مفيدة جدا في توضيح منحنيات هذا الطريق ، ولكن السياق ، حتى مع وضوح الصيغ واللواحق ، يظل بحاجة إلى كثير من القرائن الأخرى التي تتضح بها العلامات العضوية في السياق بين الكلمات.(5)

وقد عرف كذلك بأنه بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه.(6) أي الإطار العام الذي يؤطر الخطاب، سواء من حيث العلاقات الموجودة بين ألفاظ الخطاب ، أو بين المخاطب والمخاطب وأحوالهما ، وكذلك الظروف والملابسات التي ساهمت في شروط الخطاب وإنتاجه بغية الوصول إلى معرفة محتواه.

وانطلاقا من هذه التعاريف ، يمكن اعتبار السياق من الناحية الاصطلاحية ذا مدلول واسع يشمل كل ما يعين على فهم النص وان امتد زمانا ومكانا وهذا ما عبر عنه الدكتور إدريس حمادي عندما أورد مقالا " لريتشاردز" يقول فيه : ويمكن

---

(1) البحر المحيط : 18/356-357

(2) لسان العرب : باب القاف فصل السين ، مادة (س و ق) 10/166-170.

(3) لسان العرب : باب فصل النون ، مادة (ن س س) 6/213. وباب العين فصل النون ، مادة (ن ز ع) 8/349.

(4) الخطاب الشرعي وطرق استثماره ادريس حمادي المركز الثقافي بيروت لبنان الطبعة الأولى 1994م: ص 146.

(5) اللغة العربية معناها ومبناها : ص233.

(6) معجم المصطلحات الأدبية حرف السين : WWW.SULTAN.ORG

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إن يتسع المعنى المألوف لكلمة سياق ليشمل الظروف التي تحيط بالكتابة أو القول ، وقد يتسع المعنى ليشمل أي شيء يعود إلى ذلك العصر نراه مناسبا لتفسيره.(1)

أنواع السياق .

لئن تعددت تصنيفات الباحثين للسياق فإنها إجمالا لا تخرج عن نوعين أساسين : لغوي وغير لغوي . أو ما يعبر عنهما بسياق المقام وسياق المقال .

وفي هذا الصدد أورد الدكتور عبد الله لخضر نصا هاما وهو يتحدث عن آليات تحديد المعنى المراد من الخطاب بقوله : إن المعنى كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية أو المقال ، بالإضافة إلى سياق الحال أو المقام . ويشمل سياق الحال عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطب والظروف الملابسة والبيئة ، ومعنى ذلك أن سياق الحال هو مجموع الظروف التي تحيط بالكلام أي إن تحديد المقصود لا يتم إلا بمعرفة هذه الظروف .(2)

وقد نحا هذا المنحى الدكتور تمام حسان موضحا كيفية اجلاء المعنى وتوضيحه ومبرزا قصور الاقتصار على الجانب اللغوي وحده قائلا : إن اجلاء المعنى على المستويات : اللغوية ، الصوتية ، الصرفية ، والنحوية لا يعطينا إلا معنى المقال أو المعنى الحرفي وهو المعنى فارغ بمعزل عن القرائن ذات الفائدة الكبرى في تحديد المعنى ، ومن ذلك كان من الضروري العناية به ، ومن ثم فان المعنى الدلالي يشمل جانبين : أولهما يتمثل في المقال والأخر في المقام .(3)

المحور الثاني: أهمية السياق في التوجيه والترجيح .

أهمية السياق في توجيه وترجيح معاني حروف الاستفهام .

الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل ، وله أدوات كثيرة .(4)

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام كالنفي والإنكار والتقرير والتوبيخ...(5)

ولقد أورد الإمام أبو حيان مجموعة من الأمثلة التي جرت في هذا المنحى ، وخرجت عن الاستفهام ، ودلت على دلالات أخرى من بينها :

التوبيخ والإنكار :

ومثاله قوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ».(6)

---

(1) مجلة العرب والفكر العالمي ، عدد 13-14 ربيع 1991 ص 17 مقال بعنوان " فلسفة البلاغة " رتشاردز ترجمة : ناصر حلاوي وسعيد الغاسي ص147.

(2) الأحكام الشرعية وقواعد استنباطها عند ابن القيم : ص57.

(3) اللغة العربية معناها ومبناها : ص 339.

(4) البلاغة الواضحة على الجارم مصطفى أمين دار المعارف : 196.

(5) نفسه : 199.

(6) سورة البقرة : 44.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

قال الإمام : " الهمزة للاستفهام وصفا ، وما شابهها التوبيخ ... لان المعنى الإنكار عليهم وتوبيخهم على أن يأمر الشخص بخير ويترك نفسه، ونظيره في النهي قول الأسود:

لا تنه عن خُلُق وتأتي مثله ﴿ عار عليك إذا فعلت عظيم

وابدأ بنفسك وانهها عن غيها ﴿ فإذا انتهيت عنه فأنت حليم(1)

فيقبح في العقول آن يأمر الإنسان بخير وينهى عن سوء وهو يفعله".(2)

فالهمزة لم يقصد بها طلب العلم بشيء وإنما قصد بها التوبيخ والإنكار وهو ما يفهم من خلال السياق الذي وردت فيه الآية .

وفي معرض تفسيره لقوله: «فَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ».[3] قال الإمام : " قالوا – أي الملائكة -...وهذا استفهام معناه التوبيخ والتقريع والمعنى أي شيء من أمر دينكم ... وجوابهم للملائكة ، اعتذار عن تخلفهم عن الهجرة وإقامتهم بدار الكفر ، وهو اعتذار غير صحيح ... بل كانت لهم القدرة على الخروج.(4)

ومن الأمثلة التي أوردها الإمام وخرجت عن معنى الاستفهام للتوبيخ والإنكار والتقريع قوله تعالى: «قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ».[5]

أورد الإمام السياق الذي جاءت فيه الآية قائلا :...لما تقدم انه تعالى اخترع السماوات والأرض وانه مالك لما تضمنه المكان والزمان أي: «وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ)).[6] أمر نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم ، أي من هذه صفاته هو الذي يتخذ وليا ومعينا، لا الآلهة التي لكم ، إذ هي لا تنفع ولا تضر . لأنها بين جماد أو حيوان مقهور (7).

وفي قوله تعالى: «هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾».[8] قال الإمام : "... لم يرد النفي عنهم لأنهم كانوا علماء ، ولكنهم لما فعلوا ما لا يقتضيه العلم ، ولا يقدم عليه إلا جاهل ، سماهم جاهلين

---

(1) الكتاب لسيبويه 42/3 تفسير القرطبي 367/1، الجمل ص 96؟، العقد الفريد 229/2

(2) البحر المحيط لأبي حيان : 197/2

(3) سورة النساء :97.

(4) البحر المحيط : 32-31/10

(5) سورة الأنعام 15.

(6) سورة الأنعام 14.

(7) البحر المحيط :465/11

(8) ي سورة وسف 89.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

...هل علمتم استفهام معناه التقريع والتوبيخ ".(1) وقد ذهب الإمام في هذا المنحى ففسر قوله تعالى: «أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ».[2] قائلا : " لما نبه على فساد من اثبت لله شريكا ونظيرا ، اتبعه بفساد طريقة من اثتب لله ولدا ، والاستفهام معناه الإنكار والتوبيخ .والخطاب لمن اعتقد إن الملائكة بنات الله ... وهذا كما قال: «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾».[3] «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾»[4] وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعاداتكم.(5)

ومن الأمثلة التي أوردها الإمام كذلك فخرجت عن معنى الاستفهام إلى التوبيخ والتقريع :

قوله تعالى: «أَكَفَرْتَ بِالَّذِي ...»[6].[7] وقوله سبحانه: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾»[8].[9]

وقوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ»[10].[11] وقوله تعالى: «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾»[12].[13]

وقد تعامل الإمام مع هذه الظاهرة وأمثالها باعتبار السياق والمقام الذي ورد فيه الخطاب، ضابطه أن كل استفهام ما بعده واقع ، جدير بان ينفي ، فانه يفيد معنى التوبيخ والإنكار والتقريع والشاهد عندنا في هذا المبحث استدلاله بشاهدين شعريين لأبي الأسود .

---

(1) البحر المحيط : 336/5.
(2) سورة الإسراء: 40.
(3) سورة الطور 38.
(4) سورة النجم :21.
(5) البحر المحيط : 416/17.
(6) الكهف: 36.
(7) البحر المحيط : 26/18.
(8) القصص: 62.
(9) نفسه : 248/20.
(10) يس: 59.
(11) نفسه : 328/7.
(12) الصافات: 95.
(13) نفسه : 352/7.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ا الإذلال والتحقير :

ومن المعاني كذلك التي تفيدها حروف الاستفهام الإذلال والتحقير وهذا ما أورده الإمام في تفسير قوله تعالى: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾»[1]. في سياق الحديث عن إهلاك قوم فرعون بعدما تركوا جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ...قال الإمام : " فما بكت عليهم السماء استعارة للتحقير وانه لم يتغير عن هلاكهم شيء ، ويقال في التعظيم ، بكت عليه السماء والأرض : وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس، قال يزيد بن مفزع

الريح تبكي شَجْوَهُ والبرق يلمح في غمامه(2)

وقال الفرزدق:

فالشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا(3)

وقال النابغة:

بكى حارث الجولان من لفقد ربه وحوران منه خاشع متصائل(4)

ويقال في التحقير: مات فلان فما خشعت الجبال " (5)وكلها عبارات تساق لمراعاة المقام ، ومنزلة المعني بالخطاب عند الخاطب . وهذا ما عبر عنه الجاحظ (255ه) قوله : "وكلام الناس كذلك في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات : فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمريح، والحسن، والقبيح، والخفيف، والثقيل، وكل عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا".(6)

التقرير :

تخرج كذلك حروف الاستفهام عن معنى الاستفهام إلى معنى التقرير: وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده . ومن الأمثلة التي أوردها الإمام في هذا الصدد معنى قوله تعالى: «قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ

---

(1) الدخان :28.

(2) ديوانه ص 208

(3) المحرر الوجيز 74/5، العقد الفريد 240/3

(4) ديوانه 120 اللسان 137/2

(5) البحر المحيط : 216/215/23

(6) البيان والتبيين : 90/1.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » (1) قال الإمام : «أَلَمَ أَقُل» تقرير : لان الهمزة إذا دخلت على النفي ، كان الكلام في كثير من المواضع تقريرا ، نحو قوله تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»،(2) «ٱلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١»(3) «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً»(4) فيه تنبيه بالخطاب ، وهزه لسماع المقول نحو قوله تعالى: «قَالَ أَلَمَ أَقُلِ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۝٧١»(5) ... وقد تقدم أن اللام في نحو : قلت لك ، أو لزيد ، للتبليغ وهو احد المعاني التي ذكرناها فيها ".(6)

وفي تفسيره لقوله تعالى : «أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١»(7) قال الإمام :"... وهمزة الاستفهام تدل على التقرير والتفهيم ، ليتذكر السامع من يعرفه بهذه الصفة".(8)

وفي تفسيره لقوله تعالى: «ٱلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١»

قال أبو حيان: دخلت همزة الاستفهام على النفي فأفاد التقرير على هذه النعمة فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه الماضي وهو "ووضعنا"(9)

ومنه قول الراجز:

مِنْ أيّ يوميّ من الموت أفرْ ۞ أيوم لم يقدر أم يوم قدِرْ(10)

وقال آخر:

---

(1) البقرة :32.

(2) الأعراف :172.

(3) الشرح :1.

(4) الشعراء : 18.

(5) الكهف : 71.

(6) البحر المحيط : 2/65-57

(7) الماعون : 1.

(8) البحر المحيط :25/562-563

(9) البحر المحيط 25/454/455

(10) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب في النوادر ص 13 العقد الفريد 1/105

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أَضربَ عليك الهموم طارِقها ضربَك بالسيف قَوْنَسَ الفرسِ(1)

وقد كان ضابط الإمام في استنباط هذا المعنى ولو تغليبا : هو دخول الهمزة على الكلام المنفي (البعد اللغوي من السياق) بالإضافة إلى مراعاة المقام وهو ما عبر عنه : تنبيههم بالخطاب وهزهم لسماع المقول ، وقد نقل في هذا الصدد قول عبد الله بن مسعود " حدث الناس ما حد جوك بأبصارهم ، وأذنوا لك بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، وإذا رأيت منهم فترة فامسك".(2)

التعظيم و التهويل:

ففي معرض تفسير الإمام لقوله تعالى: «أَلْحَآقَّةُ مَا أَلْحَآقَّةُ ۝»[3] قال الإمام: "... وما استفهام لا يراد به حقيقة ، بل التعظيم ، وأكثر ما يربط بتكرير المبتدأ إذا أريد : يعني التعظيم والتهويل «وَمَآ أَدْرِيكَ مَا أَلْحَآقَّةُ ۝»(4) مبالغة في التهويل والمعنى فيها ما لم يدر وما لم يحط به وصف من أمورها الشاقة ، وتفصيل أو صافها ... وقال الزمخشري (538ه) : والقارعة من أسماء القيامة لأنها تقرع الناس بالاقراع والأهوال والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس و الانكدار ". (5) والقارعة ما القارعة بالرفع "ما" استفهام فيه معنى الاستعظام والتعجب (...) وقال الزجاج العرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب: قال الشاعر:

لجدير بالوفاء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح(6)

ا الوعيد :

ومن الأمثلة التي ضربها الإمام على ذلك تفسير قول الله تعالى : «أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝».[7] **قال الإمام : " أليس ... وعيد للكفار ، وإخبار بعدله تعالى .فانظر كيف بين معنى الاستفهام بالقرائن المحفوظة باللفظ ".**(8)

---

(1) البيت لطرفة بن العبد ديوانه ص 165

(2) - البيان والتبيين : 70/1.

(3) - الحاقة :1.

(4) - الحاقة : 2.

(5) - البحر المحيط : 24/498-499

(6) البحر المحيط 25/522

(7) - التين :8.

(8) - البحر المحيط : 25/467

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المحور الثالث: أهمية السياق في توجيه وترجيح معاني حروف المعاني.

يشيع في اللغة العربية أن يقوم حرف من حروف المعاني مقام أخر، فإذا دل الحرف على معنى في غيره سمي حرفا من حروف المعاني ، وقد تحدث عنها الدكتور عبد الله الرمالي بقوله :"... فإذا كان المجاز هو كسر العلاقة العرفية بين اللفظ والمعنى الذي وضع له في الأصل ، فان ظاهرة إبدال الحروف كسر هو الأخر للعلاقة بين الحرف والمعنى الذي وضع له في أصل كلامهم ، إلا أن النحاة القدامى أطلقوا على هذه الظاهرة مصطلح الاتساع ، وهو من سنن كلامهم ، وبالتالي لا يخرج عن معيارية اللغة ".(1)

ولهذه الحروف صلة وطيدة بفهم المعنى واستنباط الأحكام : لان كثيرا من القضايا الدلالية والمسائل الفقهية يتوقف فهمها على الدلالة الوظيفية التي يؤديها الحرف في النص . وقد أشار إلى هذا الإمام السرخسي (490هـ) في باب : بيان معاني الحروف المستعملة في الفقه بقوله : "... وكما يتحقق معنى الحقيقة والمجاز في الأسماء والأفعال ، فكذلك يتحقق في الحروف ، فمنه ما يكون مستعملا في حقيقته ومنه ما يكون مجازا عن غيره ، وكثير من مسائل الفقه تترتب على ذلك ، فلا بد من بيان هذه الحروف وذكر الطريق في تخريج المسائل عليها ".(2)

وقد ابرز الإمام السيوطي أهمية معرفة معانيها ضمن فصل : معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر قائلا :"...واعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف ...ومعرفة ذلك من المهمات المطلوب لاختلاف مو اقعها ، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها ".(3)

أما كيفية ضبط معانيها ، فيجيبنا عنها الدكتور عبد الله الرمالي بقوله : " فحروف الجر التي يحل بعضها محل بعض ، قد تغير دلالة التركيب ، وقد يبقى المعنى على ما هو عليه في الأصل والحكم تحده مقتضيات السياق ".(4)

وقد تطرق الإمام أبو حيان إلى توجيه هذه الحروف وترجيح معاني منها علي بعض في تفسيره ، إدراكا منه لأهميتها و مصطلحاته الدلالية ، ويتجلى هذا في الأمثلة التالية :

خروج "من" من بيان الجنس إلى البعضية :

أورد الإمام مجموعة من الأمثلة التي يفيد فيها لفظ " من " البعضية كتفسير قوله تعالى: «ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا [illegible]».(5) قال الإمام :" من للتبعيض والألف واللام في (الثمرات) لتعريف الجنس ... وإذا كانت للتبعيض كان بعض الثمار رزقا لنا ، وبعضها لا يكون رزقا لنا ، وهي الو اقع، ونقل عن حسان قوله:

---

(1) - العربية والوظائف النحوية : ص 104.

(2) - أصول السرخسي ابوبكر محمد بن احمد بن ابي سهل السرخسي 483هـ، تحقيق ابو الوفا الأفغاني، احياء المعرف النعمانية لبنان : 200/1.

(3) - الإتقان في علوم القران : 140/2.

(4) - العربية والوظائف النحوية : ص 104.

(5) - البقرة:22.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى ❀ وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

إذ المعنى : وانزل من السماء بعض الماء فاخرج به بعض الثمرات ، رزق لكم ، إذ ليس جميع رزقهم هو بعض الثمرات إنما ذلك بعض رزقهم ومن الثمرات ".(1)

وفي قوله تعالى : «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾»[2] قال الإمام : " والظاهر أن قوله «مِّنكُمْ» يدل على التبعيض ، قاله الضحاك والطبري لان الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر ، وكيف يترتب الأمر في إقامته ، وكيف يباشر ... فعلى هذا تكون (من) للتبعيض ويكون متعلق الأمر ببعض الأمة يصلحون لذلك".(3)

وفي تفسير قوله تعالى : «فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾»[4] قال الإمام: «فَاتَّبَعُوهُ» أي في الكفر، إلا فريقا هم المؤمنين و(من) لبيان الجنس ولا يمكن أن تكون للتبعيض لاقتضاء ذلك أن فريقا من المؤمنين اتبعوا إبليس ، وفي قوله «إِلَّا فَرِيقاً» تقليل لأن المؤمنين بالإضافة إلى الكفار قليل ".(5)

معاني "أو":

في معرض تفسيره لقوله تعالى : «وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ»[6] قال الإمام : فلو اتفق أن يقف على ذلك شخص من البشر، لكانت من السرعة بحيث يشك هل هي كلمح البصر أو هي اقرب من ذلك ؟ ف "أو" على هذا على بابها في الشك، وقيل هي للتخيير، والشك والتخيير بعيدان ،لان هذا إخبار من الله تعالى عن أمر الساعة فالشك مستحيل عليه ، وإنما الشك يكون في المحظورات ، كقولهم : خذ من مالي دينارا أو درهما ، أوفي التكليفات كآيات الكفارات «وَالذِينَ [illegible]»،(7) و "أو" هنا للإبهام على المخاطب كقوله :

---

(1) - البحر المحيط : 409/1-410

(2) - آل عمران :104.

(3) - البحر المحيط : 70/8.

(4) - سبأ :20.

(5) - البحر المحيط :442/21

(6) - النحل : 77.

(7) - المجادلة :3.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

«وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ».(1) لكنه أبهم على المخاطب ثم قال : ((أو هو اقرب)) تنبيها على ما ذكرناه ... وما ذكره هنا من أن " أو " بمعنى بل ، هو قول الفراء ، ولا يصح ، لان الإضراب على قسمين كلاهما لا يصح هنا ، أما احدهما فان يكون إبطالا للإسناد السابق وانه ليس المراد ، وهذا مستحيل هنا لأنه يؤول إلى إسناد غير مطابق .والثاني أن يكون انتقالا من شيء إلى شيء من غير إبطال ذلك الشيء السابق ، وهذا مستحيل هنا للتنافي بين الإخبار لكونه مثل لمح البصر في السرعة والإخبار بالا قريبة ، فلا يمكن صدقها معا ".(2)

وقال صاحب "الغنيان" هذا وإن كان يعسر ادراكه حقيقة، إلا أن المقصود المبالغة على مذهب العرب وأرباب النظم، وما أحسن قول الأبله الشاعر في المعنى:

قال له البرقُ وقالت له الر ❦ يحُ جميعا وهُما وهُما ما

أأنت تجري معنا قال إن ❦ نشطتُ أضحكتُكُما منكما

أن ارتدادَ الطّرف قد فُتُّهُ ❦ إلى المدى سبقا فمن أنتما(3)(4)

فانظر كيف بدا – رحمه الله – منفذا بالحجة ما ذهب إليه المفسرون ،وكيف بين مرجحا ومعللا ما ذهب إليه من كون " أو " هنا تفيد الإبهام على المخاطب ، وكان السلاح الذي اعتمد في مذهبه هذا هو لسياق ،ومراعاة المقام الذي ورد فيه الخطاب ، وقد أشار – رحمه الله – إلى هذا وهو يحاول أن يستقصي معاني " أو " قائلا :"" أو" لها خمسة معان ، الشك ، الإبهام ، التخيير ، والإباحة ،والتفصيل ، وزاد الكوفيون أن تكون بمعنى الواو وبمعنى بل ،... فقد تكون في الخبر ولا شك إذا أبهمت على المخاطب ، وأما التي للتخيير فعلى أصلها ، لان المخير إنما يريد احد الشيئين ، وأما التي زعموا للإباحة ، فلم تؤخذ الإباحة من لفظ " أو " ولا من معناها ، إنما أخذت من صيغة الأمر مع قرائن الأحوال " (5) أي ضرورة اخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه الحرف ، وهذا ما قرره الاسنوي (772هـ) في التمهيد وهو يحاول إعطاء الفرق بين حرف اللام وحرف "إلى" قائلا :" ووجه التفرقة بين اللام والى : أن أصل إلى للغاية ،بخلاف اللام فإن أصلها الملك ، فادا تعذر فيحمل على ما يقتضيه السياق من التعليل والانتهاء".(6)

المحور الرابع: علاقة السياق بالدلالة المعجمية

أهمية السياق في بيان دلالة الكلمة المفردة و بيان معانيها.

---

(1) - الصافات :147.

(2) - البحر المحيط :17/189-190-191

(3) البيت للشاعر الأبله البغدادي ت 579 وفيات الأعيان4/463

(4) البحر المحيط 17/191

(5) - البحر المحيط :1/218.

(6) - التمهيد في تخريج الفروع على الأصول :1/223.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لقد احتكم الإمام أبو حيان في تفسيره في بيان معاني الألفاظ القرآنية و تحديد دلالاتها إلى السياق، فجعل - رحمه الله - محيط الآية بما يسبقها أو يلحقها محط للعناية و الاهتمام لضبط اللفظ و تحديد المقصود، و استنباط الأحكام و الحكم.

و الأمثلة التي أوردها كثيرة و متنوعة، يضيق المقال و المجال لسردها و الاستشهاد بها، و سأقتصر على بعض منها رغبة في الإيجاز و الاختصار.

ففي معرض تفسير قوله تعالى: «وَإِذَ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾»[1] استنبط الإمام باستعمال السياق أن هؤلاء المخاطبين (بنو اسرائيل) امتثلوا الأمر فقال رحمه الله: أي رجاء أن يحصل لكم التقوى بذكر ما فيه... و الذي يفهم من سياق الكلام أنهم امتثلوا الأمر وفعلوا مقتضاه، يدل على ذلك «ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ »(2) فيما يدل على القبول و الالتزام لما أمروا به.(3)

فنظرة الإمام إلى محيط الآية و بيئة الكلام، استنتج أن التولي عن الشيء لا يمكن أن يحدث إلا بعد حصول فعل الشيء.

و في تفسير قوله تعالى: «وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ»[4] يقول الإمام: "... و الذي يدل عليه سياق ما قبل هذا الأمر و ما بعده بالتزود هنا بالنسبة إلى تحصيل الأعمال الصالحة التي تكون له كالزاد إلى سفره للآخرة ألا ترى قبله {و ما تفعلوا من خير يعلمه الله} و معناه الحث و التحريض على فعل الخير الذي يترتب عليه الجزاء و بعده {فإن خير الزاد التقوى}(5)(...) وقد قال بعضهم في التزود للآخرة:

إذا أنت لم ترحل بزاد إلى التقوى ❦ ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ❦ وأنك لم تُرْصِدْ كما كان قد رصدا(6)

وقال بعض عرب الجاهلية:

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ❦ ولكن حمد الناس ليس بمخلد

---

(1) البقرة 62.

(2) البقرة 63.

(3) البحر المحيط 448/2

(4) البقرة 197.

(5) البحر المحيط 138/5

(6) البيت للأعشى بن ميمون بن قيس ديوانه ص 137

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ولكن منه باقياتٍ وراثةً فأورِثْ بنيك بعضها وتزودِ
تزود إلى يوم الممات فإنه وإن كرهَتْه النفس آخر الموعد

كما أن الإمام استرشد بالسياق في تفسير قوله تعالى «وَلَوْ تَرَى ٱلذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً»[1] قال في شأن تحديد هؤلاء الظالمين: "... و لكن سيأتي ما بعده يرشد إلى أنهم متخذو الأنداد"(2). و قد استنتج ذلك بالنظر إلى ما سبق قبل في قوله تعالى: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلهِ»[3].

من خلال هذا يتضح أن الإمام - رحمه الله - في تحديده لحصيلة استعمال اللفظ داخل نظام الجملة يهرع إلى السياق خصوصا في شقه المقالي، و قد أولاه عناية هامة، يتجلى ذلك من خلال التعابير التي يوردها كالتصريح بأن ما ذهب إليه يدل عليه السياق كقوله: " و الذي يدل عليه السياق أن الأجور هي ما يترتب على الطاعة و المعصية، و إن كان الغالب في الاستعمال أن الأجر هو ما يترتب على عمل الطاعة ".(4)

و قوله: " هذا ما يدل عليه سياق الكلام ".(5)

و قوله: " و الذي يقتضيه سياق الآية ".(6)

و قوله: " و ظاهر السياق، انحصار الوارث فيهن ".(7)

و قوله: و قال ابن عباس: المحسنون هم الصالحون، كأنه نظر إلى سياق الكلام.(8)

و إذا كان الإمام يلجأ إلى السياق في فهم المراد كلما أسعفه ذلك، فإنه كثيرا ما استبعد العديد من المعاني التي لا تتماشى و السياق في رده و تعقيباته على العلماء كقوله وهو يرد على الأخفش في تفسير قوله تعالى: «وَيَاتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن

---

(1) البقرة 165.
(2) البحر المحيط 216/4
(3) البقرة 165.
(4) البحر المحيط 454/8
(5) البحر المحيط 228/3.
(6) البحر المحيط 126/4.
(7) نفسه 3/190.
(8) نفسه 228/5.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾»[1] قال الإمام: "... قال الأخفش: أراد البلايا التي تصيب الكافر في الدنيا، سماها موتا... و هذا بعيد لأن سياق الكلام يدل على أن هذا من أحوال الكلام في جهنم.[2]

كما استبعد ' ما ذهب إليه المفسرون في تفسير قوله تعالى: «فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾»[3] عندما فسروها... فيقال لهم في القيامة: كنتم في الدنيا خير أمة. قال الإمام معقبا: " و هذا قول بعيد عن سياق الكلام (4)."

أو قوله في تفسير قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾»[5] "... و حكى بعض المفسرين أن الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم... ولا يدل على ما ذكر سياق الكلام، و على هذا القول قال بعضهم: و في هذا الكلام إجمال و تفصيله أن إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا متى نصر الله ؟ فقال الرسول: ألا إن نصر الله قريب(6) كما استبعد ' قول السدي باستعمال السياق في سبب نزول قوله تعالى: «قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ»[7] قال الإمام: "... و قال السدي نزلت في رجل من الأنصار و هذا بعيد من سياق الآية ".(8)

أو كقوله: "... ذهب المفسرون فيها إلى أمر غير ملائم في سياق أول الآية ". وقوله: وهَذا قَوْلٌ بَعِيدٌ مِن سِياقِ الكَلامِ(9)

أهمية السياق في توجيه و ترجيح أحد معاني المشترك اللفظي .

اللفظ المشترك هو ما وضع لمعنيين أو أكثر في أصل الوضع اللغوي، بوضع متعدد يدل على ما وضع له على سبيل البدل، أي على هذا المعنى أو ذاك، فلا بد فيه من شرطين، تعدد الوضع و تعدد المعنى.(10)

---

(1) ابراهيم 20.
(2) البحر المحيط 16/489-490
(3) آل عمران 107.
(4) البحر المحيط 8/86
(5) البقرة 212.
(6) البحر المحيط 5/337-338
(7) المائدة 41.
(8) البحر المحيط ج11 ص 10-11
(9) البحر المحيط 8/94
(10) الوجيز في أصول الفقه الاسلامي محمد مصطفى وهبة الزحيل دار الخير للطباعة و النشر والتوزيع دمشق سوريا الطبعة الثانية 1427هـ/2006مي ص 179.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ونظرا لأهمية معرفته في ضبط الألفاظ و بيان معانيها، فقد أولاه الإمام أبو حيان مكانة هامة في تفسيره، و يتجلى ذلك من خلال بعض الأمثلة التالية التي سأسوقها على سبيل المثال لا الحصر:

فكلمة (المحصنات) قد وردت في عدة سياقات قرآنية دالة في كل سياق على معنى مختلف عن الآخر، فقد وردت بمعنى متزوجات، كما في قوله تعالى: «وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ »[1] قال الإمام وهو يوضح معاني الإحصان: " الإحصان التزوج أو الحرية أو الإسلام أو العفة، و على هذه المعاني تصرفت هذه اللفظة في القرآن، و يفسر كل مكان بما يناسبه... فالمحصنات هنا المزوجات.(2)ومنه قول الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلالا لمن يبني بها لم تطلق(3)

و لقد علل الإمام ما ذهب إليه معتمدا على أسباب النزول، باعتبارها معينا على إدراك حيثيات و ملابسات النص، و بالتالي تحديد المعنى و الوقوف على المراد، قال الإمام رحمه الله: " وروى أبو سعيد أن الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا إلى أوطاس فلقوا عدوا و أصابوا سبيا لهن أزواج من المشركين، فتأثم المسلمون من غشيانهن، فنزلت فالمحصنات هنا المزوجات .(4)

و قد ورد هذا اللفظ بمعنى الحرائر في قوله تعالى: «وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ»[5]

قال الإمام ': "و المحصنات هنا الحرائر(6) و قد وجه ورجح هذا المعنى مستدلا بالتقسيم الوارد في الآية، فقد قابل الله هذا اللفظ بالإيماء في إباحة زواج من لم يستطع أن ينكح المحصنات أن ينكح الإيماء المؤمنات مما ملك قال الإمام: " يدل على ذلك التقسيم بينهن و بين الإيماء "(7).

ومن الألفاظ المشتركة التي أوردها الإمام و رجح بين مختلف معانيها بمعيار السياق لفظة (كتاب) فقد ورد في مواضع قرآنية كثيرة و كان لها معان و دلالات مختلفة ترتبط كلها بالسياق الذي وردت فيه، إذ ملاحظة ما قبلها و ما بعدها من الكلمات و الآيات كفيلة بتوجيه المفسر نحو المقصود، فقد وردت بمعنى القرآن كقوله تعالى: «أَلَٓرۚ كِتَٰبٌ

---

(1) النساء 24.

(2) البحر المحيط 224/9

(3) البيت منسوب للفرزدق وهو في ديوانه ص 851

(4) نفسه.

(5) النساء 25.

(6) البحر المحيط 3/229.

(7) نفسه.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الْحَكِيمِ خَبِيرٍ ۝»[1] و قوله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»[2] قال الإمام: " الخطاب لمن أظهر الإيمان من مخلص و منافق و قيل للمنافقين الذين تقدم ذكرهم، و يكون التفاتا، و كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود وهم يخوضون في القرآن يسمعون منهم فنهوا عن ذلكن و ذكروا بما نزل عليهم بمكة من قولهم «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»[3]. [4]

و في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝»[5] ذكر الإمام إجماع العلماء على أن المقصود بالذكر و الكتاب هو القرآن قائلاك المقصود هم قريش ومن تابعهم من الكفار، و الذكر: القرآن وهو بإجماع.(6)

و قد يقصد بالكتاب الثوراة أو الإنجيل أو هما، و يظهر ذالك كلما اقترن لفظ الكتاب ب: «يَا أَهْلَ» و يكون المقصود بهذا المركب الإضافي «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» اليهود أو النصارى مجتمعين أو مفترقين حسب السياق باعتباره يشمل جملة من القرائن اللغوية في تخصيص المعنى وتحديده(7).

و قد يرد لفظ الكتاب بمعنى: صحيفة الأعمال التي تعرض فيه أعمال العبد يوم القيامة، كقوله تعالى:«وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

---

[1] هود 1.
[2] النساء 140.
[3] الأنعام 68.
[4] البحر المحيط 184/10
[5] فصلت 41.
[6] البحر المحيط 592/22
[7] البحر المحيط 395/7

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أَحَداً ﴿٤٩﴾»(1) قال الإمام: " الكتاب اسم جنس، أي كتب أعمال الخلق... ويجوز أن تكون الصحائف كلها جعلت كتابا واحدا وضعته الملائكة لمحاسبة الخلق.(2)

وقد يراد بالكتاب معاني أخرى تفيدها قرائن السياق الذي يؤدي إلى فهم النص و تحديد دلالة اللفظ.

أهمية السياق في تعيين المبهم.

لقد أولاه الإمام عناية خاصة، حيث جعله حكما في تحديد العديد من الألفاظ التي وردت مبهمة و غامضة، و قد انجلى غموضها بالسياق سواء في شقه اللغوي، أو الغير اللغوي، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

في تفسير قوله تعالى: «لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾»(3) أورد الإمام مجموعة من الأقوال في تحديد العهد الذي أبهم في الآية كقوله: " و العهد، الإمامة، قاله مجاهد، أو النبوة قالها السدي، أو الأمان قاله قتادة... أو الرحمة، قالها عطاء، أو الدين قاله الضحاك و الربيع..."(4)

أمام هذه الأقوال و الاختلافات للفظ رجح الإمام إحداها معتمدا على مصدرت به الآية، وأن هذا القول هو جواب لقول إبراهيم، قال الإمام: و الظاهر من هذه الأقوال أن العهد هو الإمامة لأنها هي المصدر بها... و يدل على أن العهد هو الإمامة أن ظاهر قوله تعالى:{لا ينال عهدي الظالمين} أنه جواب لقول إبراهيم {ومن ذريتي}(5)

و في قوله تعالى: «وَٱتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ»(6) فلتعيين اليوم الذي أبهم و الذي يحتمل أن يكون يوم القيامة أو يوم الموت، رجح الإمام القول الأول، و وجهه بالسياق بقوله: " و الأول أظهر لقوله تعالى:«ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾»(7) و المعنى إلى حكم الله و قضائه.(8)

(1) الكهف 48.
(2) البحر المحيط 153/18
(3) البقرة 123.
(4) البحر المحيط 392/3
(5) نفسه.
(6) البقرة 280.
(7) البقرة 280.
(8) البحر المحيط 548/6

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وفي معرض تفسيرقوله تعالى:«إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ????»(1) قال الإمام: "... قيل عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داوود وهو أبو مريم الباتول... وقيل: عمران أب موسى وهارون..."(2).

فقد رجح الإمام القول الأول بقوله: " و الظاهر أن آل عمران أنه أبو مريم لقوله: «إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ»(3) فذكر قصة مريم وابنها عيسى، و نص على أن الله اصطفاها: «وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ» فقوله: «إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ» كالشرح لشيمة الاصطفاء كقوله: و آل عمران، و صار نظير تكرار الاسم في جملتين، فيسبق إلى الذهن أن الثاني هو الأول"(4).

و يلاحظ في تعيين المبهم عند الإمام أنه يعتمد كثيرا على السياق اللغوي، و القصة التي ورد فيها الاسم المبهم، و كلما أسعفه السياق القريب من التماس الدليل فلا يرجع بما هو أبعد منه، كقوله في تعيين معنى الشهادة على الناس في قوله تعالى: «وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ»(5) هل المقصود بها: الشهادة على الناس في يوم القيامة أو الذين سقطوا في يوم أحد. قال الإمام مرجحا القول الأول بالسياق الذي وردت فيه القصة: " و القول الأول أظهر و أليق بقصة أحد".(6)

و مثل هذه الترجيحات يعبر عنها الإمام بقوله: "... لأن الآية جاءت في سياق ما قبلها فدخل فيها ما قبلها دخولا لا يمكن أن يخرج منها".(7)

---

(1) آل عمران 33.
(2) البحر المحيط 219/7
(3) آل عمران 35.
(4) البحر المحيط 219/7-220
(5) آل عمران 140.
(6) البحر المحيط 219/8-220
(7) نفسه 2/48.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/